دراسات في العلوم الإنسانية والاجتماعية
مجلد 26 العدد 01 السنة 2026 ص720 ص739
ISSN : 2602-7402
EISSN: 2676-1637

خطاب السّخرية في كتابات الناقدة نوال السعداوي

The discourse of satire in the writings of critic Nawal El Saadawi

د/عبد الله بن جبار
جامعة الجزائر -2 أبو القاسم سعد الله(abdellah.bendjebbar@univ-alger2.dz

تاريخ الاستلام: 2026/01/12 تاريخ القبول: 2026/06/06 تاريخ النشر: 2026/06/09

Abstract:

This study employs a critical philosophical analysis of the personal views of the late Nawal El Saadawi, a cultured, creative, and critical woman who left behind a rich body of writings and intellectual works. This controversial figure among the contemporary Arab elite is known for her bold critique of all matters related to women's issues. Her writings, which often employ satire, draw the attention of scholars to sensitive topics such as women, sexuality, religion, morality, politics, and society. She addresses issues related to men, family, society, the state, and the world at large. Therefore, we will attempt to elucidate the implications of her critical approach in analyzing various issues facing contemporary humanity with great care and precision.

Keywords: Satire; Women; Religion; Criticism; Moral Values

المؤلف المرسل: د/ عبد الله بن جبار
البريد الالكتروني:abdellah.bendjebbar@univ-alger2.dz

الملخص:

نتناول من خلال هذه الدراسة بالتحليل الفلسفي النقدي تصوّرات شخصية امرأة مثقفة ومبدعة ناقدة، وهي الراحلة نوال السعداوي، التي تركت كتابات وأعمال فكرية. ولنا في هذه الشخصية المثيرة للجدل بين النخبة العربية المعاصرة من حيث نقدها الجريء لكل ما له علاقة بقضايا المرأة؛ فقد تركت ما يلفت انتباه الدارسين لحيثيات خطاباتها التي تميل الى السّخرية في مواضيع حساسة منها: المرأة والجنس والدين والأخلاق والسياسة والاجتماع وغيرها. وكل ما له صلة بالرجل والأسرة والمجتمع والدولة والعالم بأسره، لأجل ذلك سوف نحاول توضيح خطورة منهجها النقدي في تحليل مختلف قضايا الإنسان المعاصر بتمعّن كبير وحذر شديد.

الكلمات المفتاحية: السّخرية ؛ المرأة ؛ الدين ؛ النقد ؛ القيم الأخلاقية.

1_مقدمة:

يعود الحديث عن كتابات الناقدة الأديبة نوال السعداوي(1931_2021م) منذ مدة طويلة، حينما توالت الردود حول استخدامها لمنهج نقدي جريء ولاذع لكلّ ما له صلة بالواقع العربي المعيش، بعض قضاياه تتعلّق بالمرأة والأسرة والمجتمع والدولة، وكل ما هو راهن، وبالمشاكل النفسية والأخلاقية والاجتماعية والدينية والاقتصادية والسياسية للمجتمع، وما يلفت انتباه الدارسين لأدبيات النقاش حول هاته القضايا، وتلك المشكلات التي تطفو على سطح الإعلام الراهن، تظهر له الصورة واضحة حول مجاراة الناقدة الراحلة نوال السعداوي في تناول الأحداث بطريقة تثير الفضول لدى منافسيها؛ وهي التي خرجت ذات يوم على الإعلام بتصوّرات غريبة للغاية، وخطابات يتطلّب مراجعتها وإعادة قراءتها قراءة موضوعية. وهنا سنتعرّف الى طريقة تحليلها لمختلف القضايا الإنسانية بحذر شديد، لاسيما عندما تعبّر عن قصديتها بخطاب ساخر لكل ما هو ذكوري، الأمر الذي يجعلنا نتخذ موقفا واضحا وصارما، لبعض أقوالها التي لا يسمح لها أن تمرّ مرور الكرام، والبداية من طرح السؤال الآتي: **ما**

ISSN : 2602-7402
EISSN: 2676-1637

مضمون خطاب السّخرية في كتابات الناقدة الراحلة نوال السعداوي؟ وما هي تداعيات تصوّراتها الفكرية وأعمالها الأدبية على الوعي العربي المعاصر؟

وبمعنى أدق: من أين تملك كلّ هذه الجرأة على نقد مختلف المشكلات الحياتية العربية الراهنة؟

من الأهداف التي نريد الحصول عليها في ختام الدراسة، هي:

1-التعرّف على التنشئة النفسية والاجتماعية والثقافية لشخصية نوال السعداوي من خلال مواقفها وكتاباتها وأعمالها الأدبية. خاصة وهي تمثل المرأة العربية المثقفة والواعية التي تبرز قدرتها على التأثير في المجتمع الذي تنتمي إليه.

2- تأكيد دور الخطاب الفكري السّاخر في توجيه ذهنية الفرد؛ خاصة وأنّ السّخرية كخطاب لغوي جاد، يدرك بها الفرد مستواه الثقافي أمام الآخر، كدلالة على مدى قدرته على التحليل والفهم للقضايا الصعبة والمستجدة.

4-إثبات أنّ خطاب السّخرية فن من فنون الإقناع في كلّ وقت، لأجل ذلك تكمن خطورة استخدامه في التلاعب بالألفاظ وتحليلها، لمواجهة الآخر.

5_ الحكم على نوعية كتابات وأعمال نوال السعداوي، هل ترتقي الى مستوى من الوعي الفكري الجاد، بأن تكون هادفة ومثمرة ومنتجة، وبالتالي البحث عمّن يتبنّى مشروعها الحداثي الثقافي في مجال الخطابة المبدعة، ويتغنّى به أمام الأشهاد.

-منهج الدراسة :

لعلّ أهم منهج فلسفي للبحث في مثل هاته المواضيع، منها: الخطابات الفكرية الراهنة، نذكر المنهج التحليلي النقدي، لأنّنا سنعتمد على تحليل المصطلحات الفلسفية والأدبية العميقة، مثل خطاب السّخرية كفن من فنون الحجاج اللغوي. وبه أيضا نتعرّف على مناحي استخدام لهذا الأسلوب في نقد مختلف المشكلات الحياتية في سياقات اجتماعية وتواصلية معينة (اضفاء للموضوعية).

كما نكون في حاجة الى المنهج المقارن، لاسيما فيما يتعلّق بإسقاط تصوّرات الناقدة الراحلة على الحياة العربية بأسرها في ظل تعايش الأنا مع الآخر، وبالنظر الى مثيلاتها من النسوة المثقّفات، من أجل معرفة الخلفيات التي جعلتها تصل الى قناعة راسخة في قراءة وضعية من الوضعيات بشكل يلفت الانتباه . أي محاولة تركيب صورة جديدة عن نمط تفكير هذه الأخيرة ضمن المشكلات الموجودة، ثم نحكم على أعمالها بالفهم الصحيح. وكأننا نقارع الحجة بالحجة من منطلق وسيلة تحليلها للموضوع المدروس.

-أهمية الدراسة:

إنّ دراسة موضوع خطاب السّخرية من خلال كتابات امرأة مثقّفة مبدعة في مجال الرواية والأدب، وتمثّل النخبة النسوية المرموقة في العالم العربي المعاصر، ثم نجد ما يلفت انتباه الدارس أو القارئ لأعمالها، وهي توثّقها بالنص المكتوب، يحمل أهمية بالغة في حياة المثقف بالدرجة الأولى. فقد عُرفَت شخصية نوال السعداوي بنقدها الحاد لكل قضية مهما كان نوعها. ومن هنا ظهرت الأهمية في شكل تحليلاتها وقراءاتها للمشكلات، ممّا يتطلّب أحيانا معرفة الخلفيات والأبعاد من جهة، ومعرفة النتائج والتأثيرات التي وقعت في وعي الفرد والمجتمع من جهة أخرى. وقد يتساءل البعض: لماذا نجد في شخصيتها ميزة مغايرة للشخصيات الأخرى من النسوة؟ وما قدرتها على فهم المسائل الفكرية والرّد عليها بجرأة نادرة لا حدود لها؟

من أجل تحديد الأهداف الممكنة لهذه الدراسة، وضعنا فرضيات، منها:

1- موقف الناقدة نوال السعداوي من قضايا جوهرية في الحياة، فيه نظرة موضوعية ومعقولية، يمكن الأخذ به عن طريق البرهنة بالنصوص المكتوبة.

2- خطاب السّخرية في كتاباتها يلفت انتباه كل دارس، مؤثّر ومقنع ومنتج أو غير ذلك في مناطق مظلمة.

ISSN : 2602-7402
EISSN: 2676-1637

3- كلّ أعمالها الفكرية فيها **تداعيات** على الوعي العربي الراهن.

وقبل خوض غمار الدراسة، في تناول شخصية مثيرة للجدل؛ من حيث طبيعة الطرح والتحليل المنتهج في كتاباتها وأعمالها التي يمكن الرجوع إليها. علينا أولا التركيز على المصطلح الموجود في عنوان المقال، وهو خطاب السّخرية في كتابات ونصوص فكرية وأدبية. قبل الحكم على المواقف، لكن بشرط أن تكون عن قرب وبالدليل. لأنّ ما يُقال يبقى مجرّد تصورات لا أهمية لها، لكن قراءة نص أدبي، يستوجب منّا الحذر في الدراسة، والتمعّن في الفهم الصحيح، لما هو مكتوب. ولنا أن نتعرّف على طبيعة الخطاب المدروس، ثمّ نعود لتفحّص بعض نصوصها الأدبية، حول قضايا إنسانية واجتماعية وثقافية ودينية وسياسية وغيرها.

2_طبيعة خطاب السّخرية وخصائصه وآلياته:

من المعلوم، بأنّ كلّ خطاب هو كلام موجّه للغير من أجل الإفهام، ومن ثمّ حصول التأثير والإقناع، عن طريق التواصل الحواري أو الجدلي، كما حدّده علماء اللغة المحدثين و المعاصرين. ولكن المشكلة في ضبط المصطلح من حيث الإضافة لهذا الخطاب الذي يجمع بين أسلوب الإقناع والتأثير، والسّخرية والإعجاب بالذات في آن واحد، وكأنّه فن الإقناع الجديد الذي يعادل المناظرة والجدل بطريقة مميزة، كتعبير عن امتلاك قدرة فهم وحل المشكلات.

و لعلّ السّخرية؛ بحكم كونها "الكلام الذي يذمّ مادحا ويمدح قادحا"؛ قد يمنحها مدا دلاليا ملتبسا.. يسلّمها الى عالم المعنى المزدوج الذي يصلها بالملفوظ الشعري حينا، ويوقعها على الطرف النقيض من الخطاب الجاد حينا آخر، ويضعها في صميم الوجهة المفارقة الخارقة للمعنى المشترك[1]. ومتداخلة الإفهام.

إنّ السّخرية(**Eronie**)؛من حيث هي حجة مبنية على العلاقات العقلية الباحثة عن الحقيقة، كما صنفتها البلاغة الغربية الكلاسيكية، هي "تعدّد صوتي غائب عن

علامات النص ومناقض لها، بحسب معظم المقاربات المعاصرة"[2]. فهي من منظور البلاغة الجديدة، قادرة على البحث في أصل المفاهيم والظواهر لتقصّي خصائصها الجوهرية"[3]، وبحكم أنّ المكوّن البلاغي للسخرية: يقوم على النظر إلى "إثبات الشيء ونفيه، أو التعبير عن القول بضدّه، كما جاء في التعريف المثبت بكتاب" La rhétorique a Alexandre" لصاحبه "Anaximéne " المنسوب الى أرسطوAristote. فالسخرية عنده، تجمع بين الأداة التي لا تصرّح بقوة شيء، مع أنها تلفت الانتباه إليه،والقلب الدلالي المستعمل للكلمة بالشكل المناقض لمعناها الحقيقي. والتقنيتان تمكنّان الخطيب من إنكار ما أثبته"[4]. والأمر هنا؛ يتعلّق بما هو شفهي من الكلام؛ بحيث يمكن للخطيب أن يظهر قصدية كلامه في حالة إظهار موقفه النهائي من القضية المدروسة، وفي حالة التلاعب والعبث لا يمكن حصر كلامه و الحكم عليه. وهذا هو حال من يصرّح أمام الإعلام شفويا، ثم ينكر كلامه بعد مدة، على أنها كانت هفوة أو زلة لسان، أو سوء الفهم؛ وعليه تحدّد المواقف من خلال التصريح بالقول. إمّا بالتأكيد على الموقف، أو التراجع عنه.

وعليه؛ تكون السّخرية بوصفها مجازا، كأن "يقول شيئا آخر غير ما يقصده المتلفّظ"، ويوهم بالإيجاب حيث السّلب العكس، ينقلها من مستوى الجملة إلى مستوى الخطاب، حيث لا يفي بقصدها إلاّ سياق القول. وأساسها التعبير عن شيء آخر غير ما يذهب إليه القول"[5]. وتصبح بذلك السّخرية؛ كشكل تفكير "يتجاوز إجراءات الخطاب، مرورا بسخرية القلب الدلالي، وصولا الى اعتبارها تقنية خطابية ذات بعد تواصلي مفارق، يميّز بين المتكلّم والمتلفّظ، أو بين المتكلّم وكلامه، أو احتمال نفس الملفوظ للإثبات والنفي، للحجّة والحجّة المضادة"[6]. وهي بهذا المعنى؛ تكون على شكل تواصل كلامي حواري، يلجأ فيه المتكلّم الى تداول ألفاظ تحتمل النفي أو الإثبات، من خلالها تظهر الحقيقة بطريقة معيّنة. لذلك كثيرا من المتواصلين بالكلام، يتمّ التظاهر بالحقيقة في سياق القول،حيث يحصل الفهم

ISSN : 2602-7402
EISSN: 2676-1637

بقصد آخر. فهي تتطلب مهارة لغوية في استخدام الألفاظ في مكانها المناسب والوقت الملائم(كما هو في المناظرات).

وهذه الحالة كما قلنا، تفيد مقابلة الناقدة نوال السعداوي مع المفكّر محمد عمارة(1931_2020م)،حول وضعية المرأة داخل المجتمع؛ بحيث لم نجد ذلك الرّد المقنع، من طرف الناقدة التي كان فعل قولها، هو الاتهام للمبادئ من منطق السّخرية، وتعيد ترديده في كتاباتها بأسلوب أكثر جارحية ضد القيم السّائدة. وسوف نفصّل ذلك في العنصر الموالي من الدراسة، بعدما تناول خطورة خطاباتها الفكرية والأدبية. لأنّها غالبا؛ تنطلق من سؤال تقول فيه، أنه حيّرها لا لشيء سوى للفت الانتباه لما ستقوله، وسوف نورد أمثلة واقعية، قبل أن نحكم على تلك الأسئلة المحيّرة التي أقضت مضجعها دون أجوبة تشفي غليلها.

فإذا كانت هذه الأخيرة؛ في أصولها مثلا؛ تعتبر جزءا مُهمًّا، أو على الأقل لها علاقة بمحتوى التواصل، فإنّها بعد ذلك، قد تداعت لتصبح "**فنّ التعبير الجميل**"، أو آلية للفصاحة المهتمة بالشكل فقط"[7]؛ حتى تبهر المستمع بما تشير إليه من تصورات فكرية مبدعة، من تعبير في دفاعها عن المرأة العربية، ومن خلال تواصلها مع الجمعيات النسوية، كان شغلها الشاغل بالشكل فقط عن حرمان المرأة، وظلم الرجل لها وليس العكس، وبتعبيرها الفصيح في الروايات، تندب حظّها أنّها تعيش في مجتمع ذكوري، وزاد سخطها على المقادير الإلهية التي شرّعت، بقوامة الرجل على المرأة؛ فهو يعدّ في نظرها ظلم كبير من طرف الإله نفسه، ثمّ الرجل، ثمّ المؤسسة الدينية والسياسية، عبر العصور نجهل تفسيره.

فالأقوال التي يتكوّن منها استدلال ما؛ مستقلة بعضها عن بعض، بحيث أنّ كلّ قول منها يعبّر عن قضية ما، أي يصف حالة ما، أو وضعا، من أوضاع العالم، باعتباره وضعا واقعيا أو متخيّلا. ولهذا فإنّ تسلسل الأقوال في الاستدلال، ليس

مؤسّسا على الأقوال نفسها، ولكنّه مؤسّس على القضايا المتضمّنة فيها، أيْ على ما تقوله أو تفترضه بشأن العالم... واشتغالها داخل الخطاب"[8].

يمكن أن نستعمل الاستدلال الحجاجي في الخطاب الفلسفي عامة والبلاغي خاصة، بوصفه تلك المنهجية أو الطريقة العقلية التي يسلكها الناقد والمبدع، بهدف إرساء "حقيقة" معيّنة، وما يقتضيه ذلك الإرساء من عمليات عقلية –منطقية؛ تدعّم ذلك الطرح دعما حجاجيا من جهة، وأساليب إفحامية توجيهية من جهة أخرى"[9]؛ بحيث يستطيع المتكلّم_مثلا_ التعبير في سياق اجتماعي معين، وأن يختار المقام المناسب للتأثير من جهة، أو للرّد والاعتراض من جهة أخرى، ويحصل العكس تداوليا، أي: قد يصبح السّامع متكلّما، ويشترط فهم القصد من أجل الاقتناع، ومن ثمّ إعادة قراءة اللفظ بأسلوبه الخاص، كونه ذات قارئة وشارحة. ويحصل هذا التوجيه في مستويين: مستوى السّامع ومستوى الخطاب نفسه، خاصة مع ما بين المستويين من تداخل. والآلية في توجيه السّامع؛ أنّنا حين نتكلّم، إنّما نروم في العادة، «التأثير في هذا السّامع، أو مواساته أو إقناعه، أو جعله يأتي عملا ما، أو إزعاجه أو إحراجه وغير ذلك"[10].

والحجّة؛ قد تردُ في هذا الإطار، على شكل قول، أو فقرة أو نص، أو قد تكون مشهدا طبيعيا أو سلوكا غير لفظي إلى غير ذلك. و قد تكون ظاهرة أو مضمرة بحسب السياق"[11]. وهكذا عندما نقرأ بعض روايات الأديبة نوال السعداوي، نستشعر وجود كلّ أشكال الأقوال والتصريحات في نصوص مكتوبة، بالضرورة تخضع للنقد، كما تعتقد هي في وجوب إخضاع النصوص الأدبية و الدينية للنقد ومراجعتها وتعديلها، وقد طالبت أحيانا، بزوالها مهما كانت. فالنقد الأدبي المعاصر وفق المنهج التفكيكي الوافد، يعترف أصلا بفكرة موت الكاتب الذي سيصبح نصه المكتوب حق للقارئ، وكلّ ذات قارئة، قراءتها(انشطارية) صحيحة، وسوف نبيّن النصوص التي كتبتها في كل مجال تطرقت إليه، إلاّ ولها موقف مخالف لكلّ التوقعات من حيث

ISSN : 2602-7402
EISSN: 2676-1637

الطرح و التحليل، سواء من نصوص مخالفة لها، أو من قراءتها للوقائع. وسوف نجد في تصريحاتها المبنية على الشكّ في كلّ شيء، والدعوة الى إزالته نهائيا. وهذا ما سنكشفه فيما يلي:

3_قراءة في تصوّرات الناقدة نوال السعداوي الأدبية :

3_1_تصوّراتها عن المرأة والأسرة:

عندما نتصفّح الحالة النفسية لهذه الشخصية الأدبية من بين النساء المعاصرات للحداثة؛ نجدها تزاحم الأدباء في المحافل الفكرية، حينها ندرك أهمية الموضوع المدروس. أي: سنكشف المستور في كتابات نوال السعداوي في مجالات متعدّدة. قبل أن نحكم على منهجها النقدي، الموجّه لكلّ ما هو مبدع في حياة الإنسان ككل ولا يروق لها ذلك.

وبدايتنا؛ مع التعرّف على مرحلة من مراحل نشأتها، حيث تقول عن نفسها:" لم تكن أسرتي من الأسر المصرية غير المُتعلمة. كان أبي متعلمًا تعليمًا عاليًا،بل كان"مراقبًا" ،وكانت أمي قد تعلَّمت في مدرسة فرنسية، قبل أن يُزوجها أبوها...؛ لماذا يُميّزون أخي عليَّ في الطعام والملابس، وهدايا العيد، و الحرية في الخروج من البيت؟ و كم كنتُ أشفق على البنات من أقاربي، حين كنت أرى الواحدة منهنَّ تترك المدرسة ليُزوّجوها إلى عجوزٍ لديه قطعة أرض، ولماذا يحظى أخي بامتيازات لا تعطى لي،مع أنّني أتفوق في المدرسة؟[12]

وكانت تجيب عن أسئلتها بنفسها:"ولم يستطع أحد في البيت أن يردَّ على سؤالي ردّا مقنعًا، وظلّ السؤال حائرًا في رأسي، يَتردَّد من حين إلى حين، كلما وقع شيء جديد يؤكّد لي أنّ الذكر يُعامَل في كلّ مكان أذهب إليه على أنه الجنس الأعلى من الجنس المؤنث. وحين ما ذهبت إلى المدرسة لاحظت أنّهم يَكتبون اسم أبي فوق كراساتي وكتبي، ولا يكتبون اسم أمي، وسألتُ أمي عن السبب فقالت لي :كده[13].

ونحن نجيب بشكل آخر؛ إنّ البنت التي تنشأ في بيت أزهري، وأسرة متعلّمة ومثقفة؛ حريّ بها أن تسأل من باب الفضول أو الحيرة، لذلك لا يمكن أن تكون هناك مبرّرات للانسلاخ عن القيم، والتمرّد على التقاليد والأعراف، وصولا إلى حدّ توليد أزمة نفسية، ملؤها الكراهية لكل ما هو دين أو ذكورية. وهذا ما يلاحظه كل قارئ لذهنية نوال السعداوي، التي انتقلت من مرحلة التساؤل الى الشكّ ثم إلى ما هو أسوأ، ممثلا في الدخول في صراع مع الذات والآخر بأشكاله. على عكس ما لاحظناه في شخصيات نسائية، نشأت في بيت أزهري، وبقيت متمسكة بأخلاقها الدينية، مثل: الداعية زينب الغزالي(1917_2005م)، فضربت أروع الأمثلة في تمثيل المرأة المسلمة المعاصرة. وعليه؛ نسجّل بعض آراء نوال السعداوي المتحوّلة من أسرة متديّنة محافظة، إلى أسرة تعليمية أدبية، نقدّم من خلالها مقتطفات من أقوالها، منها :

_يجب أن يتغير مفهوم الإسلام، وتتغير معه عادات المسلمين.

_حجاب المرأة نشأ في العصر العبودي. وتحجب المرأة موروث تقليدي قديم مأخوذ من اليهودية... ولا علاقة بين الحجاب والإسلام ... وقالت بلغتها العامية: "علماء اليومين دول مجانين وجهلة همّه لسه بيلصقوا الحجاب بالإسلام، دول بيشَوّهوا الإسلام...وتقول باللهجة المصرية:(**ليه الرجال قوامون على النساء؟** مع قوله واحد جاهل يبقى قوام على وحدة دكتورة مثلا؟ وإذا كانت المرأة هي إللي بتنفق على الراجل يبقى إزاي الرجال قوامون؟). أي:(لماذا يكون الرجال قوامون على النساء؟!

وتطعن صراحة بالإسلام، فتقول عن مناسك الحج: نص مناسك الحج مأخوذة من الوثنية... أنا نفسي أعرف بيضربوا إبليس إزاي؟ ونفسي أعرف بيعبدوا الحجر الأسود ليه... الحج يا جماعة عادة وثنية موروثه من عبدة الأصنام"[14].

و لقد كانت تجيد وصف مآسي المرأة وقهر مجتمعها لها، بوصف دقيق جدا، كما كانت حريصة على الاهتمام بالجنس الأنثوي، ومعاداة الجنس الذكوري في أغلب

ISSN : 2602-7402
EISSN: 2676-1637

الأحوال، عندما تقول:"كانَ اهتمامِي يتَّجهُ أكثرَ نحوَ إنقاذِ أجسادِ البناتِ وعُقولِهِن، وهذا أَمرٌ طبيعيٌّ؛ لأني امرأةٌ وطبيبةٌ عِشتُ بجَسدِي وعَقلِي مَآسِيَ النِّساء"[15]. لأجل ذلك يمكن التركيز في عناصر كتاباتها، على حضور المرأة الفكري والديني والأخلاقي والنفسي(بشكل بارز) والثقافي والأدبي وحتى السياسي.

ثم تعود للحديث في قصة "المرأة قبل أن يلدها آدم"، ضمن أسطورة الأولوية للمرأة على الرجل، وقامت بتسمية العنصر "جزر أمومية في محيط أبوي"، حين سُلبت حواء قدرتها على المعرفة والحركة والخلق، رغم أن مَن يُعيد قراءة الأسطورة، التي تتعلّق بقصة الخلق تشرحها بالقول:" المرأة لم تكن تابعة للرجل، بل إنّ آدم هو الذي كان تابعًا لحواء...،كانت المرأة أقوى بعقلها وذكائها من الشيطان، وكانت تَنتصر دائمًا بمعرفتها وحكمتها على الشياطين و الآلهة معًا؛ فقد انتصرت حواء على الإله، وجعلت آدم يُطيعها هي، ولا يطيع الإله"[16]. وإذا لم تكن هذه سخرية سواء من قدر المرأة أو الرجل، فماذا يسمّيها القارئ؟ وهل سيقتنع بها ؟

هذا التمهيد هو من أجل الرد على الأقوال التي تشيد بأن المرأة ناقصة عقل، في حين أنها كانت صاحبة المعرفة، والرجل تابع ومطيع. ومع ذلك تلح على إيجاد الجواب لسؤالها، عندما تقول:" ولم يَستطع أحد أن يرد على سؤالي: لماذا اختفَت الإلهة الأنثى من تاريخ الإنسان؟ ولم يعد إلاّ الإله الذكر في الأديان السماوية؟[17]

والجواب المنتظر لهذا السؤال، موجود في ذاكرتها، حيث تقول:" لازلت أذكر ذلك الحوار القديم الذي حدث بيني وبين أبي عن حقيقة الله، ولماذا عاقبني مدرّس الدين حين اعترضتُ عليه، حين قال لي :إنّ الله ذكر وليس أنثى. ولا زلت أذكر محاولاتي اليائسة(تملك الجرأة على الكذب بأنّها شجاعة أدبية خارقة) لأعرف لماذا نُسب الإثم والشرّ إلى حواء، مع أنها هي التي كانت صاحبة المعرفة، وهي التي قادت آدم إلى شجرة المعرفة، ولولا معرفة حواء وإقناعها لآدم، ما جئنا نحن، وما جاءت البشرية كلّها."[18]. ثم

الفهم الصحيح لديها؛ في كيفية طرح السؤال، وتجيب عنه دون عقدة في تفسير وجودنا، بإقناع حواء لآدم بالخروج من الجنّة...

وفي مواصلة حديثها عن المرأة، تقول:"عجزت الحركة النسائية في مصر عن تحقيق شيء من هذا الذي حققته الحركة النسائية الجزائرية؛ فقد خاضت المرأة الجزائرية الحرب ضد الاستعمار الفرنسي، وخرجت إلى الشوارع في مظاهرات ضد التيارات الدينية الإرهابية"[19]؛ وحتى تسدي معروفا للمرأة الجزائرية بهذا الاعتراف الخاطف؛ فقد قدّمت لها فتوى غريبة، كانت هي الكاشفة لتصوّراتها الشيطانية؛ إذْ بإمكان المرأة التي مرض زوجها، أن تتزوج من رجل آخر، وتشترط عليه النفقة عليها وعلى زوجها المريض، وتعيش معه في غرفة واحدة. وهذا التصورّ الذي تعجّب منه الشيطان. كشف عن نواياها الخسيسة، لتكون مبدعة بارعة وخارقة، وبذلك تصحح وضعية المرأة في إبداع ليس له نظير، وهي تدرك خبثها المبطن للمرأة المسلمة، وعداءها الشديد للدين والقيم الأخلاقية والأعراف الاجتماعية في العلن.

3_2_تصوّراتها عن الدين والأخلاق والسياسة:

نقول؛ حتى منطقها فاسد من أوله الى آخره، لن ينجح تطبيقه على فكرة "تحجيب النساء درءًا للفتنة و المفسدة (مفسدة الرجال)، كأنّما أخلاق الرجال هشّة إلى حد المفسدة، إنْ وقعت عينه مع وجه المرأة،أو حركة جسمها وهي تركع، والمشكلة هنا؛ إذًا ليست المرأة، بل أخلاق الرجال الهشّة، الذين يشغلهم الجنس والشهوة حتى وهُم راكعون في الصلاة بين يدي الله السميع البصير"[20]. وهنا تصوّرت الاختلاط في المسجد أثُناء الصلاة بين الجنسين، فالعقل لا يستوعب حضور الشهوة والجنس لرجل فاسد في الصلاة(هذا قدح وقذف) التي تنهى عن الفحشاء والمنكر والبغي، فلا فتوى و السعداوي في المدينة.

وعليه؛ نشير بالضرورة إلى هذه التصوّرات المزعجة التي تخدش في شخصية المرأة مهما كانت، ثم نترك للقارئ الحكم. بحيث تقول صراحة:" والتقيت بامرأة أمريكية

ISSN : 2602-7402
EISSN: 2676-1637

تعيش في القاهرة، تعمل بإحدى الشركات الأمريكية، وتعيش مع امرأة أخرى مصرية، نشأت بينهما علاقة حب..، وحين سألتها هذا السؤال: ألا يوجد تعارض بين الحجاب و الجنسية المثلية؟

–أبدًا ما فيش تعارض! و كيف؟

–ربّنا أمرني أغطي شعري،لكن ما فيش آية في القرآن ضد الجنسية المثلية"[21].

نفهم من هذا الاستدلال الخبيث؛ أنّ معيار الإباحية لدى المرأة الأمريكية، كأنه الأنموذج المقتبس من الاسلام؛ فصارت القدوة في نظرها السخيف عن حال المرأة التي ترتدي الحجاب، فلا يمكن أن يتعارض مع ممارسة الرذيلة و الأخلاق الفاسدة، وإلاّ لماذا صدر التشريع الإلهي من أجل عفة المرأة؟ وهل الحجاب غير قادر على منح الحياء والحشمة والجمال للمرأة، فهو مُعرّض للهلاك وارتكاب الفواحش؟ أليست هذه سخرية من التشريع الإلهي؟ أليس هو تحدّي للمرأة المسلمة على العيش في طهارة وتعبّد لربّها وامتثالا لأوامره ؟ وهل خلت الحياة من نماذج النسوة الطاهرات، بأن تكنّ قدوة لها، بدل الأمريكيات ؟

كلّ كتابات نوال السعداوي؛ كتبت عمدا، وهي ناقمة على القيم الخلقية، فتروي حكايات امرأة وعلاقاتها الجنسية، في مواضع كثيرة، متنوعة ومتداخلة؛ عدوّها الأوحد الذكورية والدين. ومن يبحث في الروايات، يجد عجب العجاب من السخافات التي تعتبرها نوال السعداوي إبداعا مبهرا، وعبقرية مذهلة وأسطورية في تحدّي صارخ للفطرة الإنسانية. ولنا أن ننصح كلّ قارئ، بأن يأخذ أي موضوع يخصّ المرأة، في مجالات متعدّدة، ويدرسها بعناية، ويحكم على خطاباتها السّاخرة على كلّ ما هو فطري في الإنسان، وبالأخص ما هو ذكوري. فيكتشف العجب في قدحها لخالقها بديع السّماوات والأرض وما بينهما.

وعند خط تصوّر نوال السعداوي، مفاده: "ربّما يحدث في بلادنا العربية أن يطالب رجال الدين الإسلامي الذين خضعوا للسلطة السياسية والاقتصادية على مرّ العصور، واقترفوا الآثام والذنوب التي لا تقل خطورة عن جرائم الكنيسة الكاثوليكية، ربّما يُؤنّبهم ضميرهم أخيرًا، ويعلنون الصفحَ و المغفرة عن أخطائهم، وإساءتهم معاملةَ الفقراء من البشر و النساء[22].

ففي كلّ كتاباتها؛ تكتشف لنا التناقض في الواقع التاريخي، ولا تعترف بالتناقض الحاصل في تصوّراتها، وهي تكتب عن المرأة والدين والأخلاق والسياسة والاقتصاد والأدب والفنون. ونحن بصدد التحليل لأعمالها الإبداعية التهديمية وهي التي سبّبت خالقها؛ الذي وهبها التفكير المبدع في السّخرية من كلّ شيء، بأن تستخدم مصطلحات خاطئة عن الاسلام، وتنسب إلى علمائه الآثام والذنوب والأخطاء، بل وتطالبهم بالتوبة كذلك. في حين تطالب الاقتداء بالمرأة الأمريكية في سلوكها التحرّري في ارتداء الحجاب وممارسة المثلية والسّحاق على الموضة الغربية، حتى تشعر المرأة أنّها أنثى حقيقية. وهنا نتحدّى أي قارئ؛ أن يجد موضعا حسنا في إنتاجاتها الأدبية حول المرأة والجنس، نالت القبول في محيطها النخبوي. فهي داعية الى الشذوذ، و في كل حادثة تثور حفيظة تصوراتها تقوم بتوجيه التهم للدين، وليس للممارسات التي أدّت الى إهانة المرأة؛ فهي مهاجمة شرسة للدين ومُهادنة للممارسين اللاأخلاقيين من السياسيين والعسكريين الذين يمنعونها المشاركة في المظاهرات. وهنا لا نجد الإنصاف المستحق، كالإشارة الى السبب الفاعل في مثل هاته القضايا. ثم ها هي تطعن صراحة في الإسلام؛ فتقول عن مناسك الحج: "فهي مأخوذة من الوثنية... أنا نفسي أعرف بيضربوا إبليس إزاي؟ ونفسي أعرف بيعبدوا الحجر الأسود ليه... الحج يا جماعة عادة وثنية موروثه من عبدة الأصنام"[23]. وقالت أيضا؛ مُعلّقة على نظام الميراث في الإسلام: نظام الميراث الإسلامي ظلم المرأة كثير ، ومن حقّنا كنساء أن نطالب بتغييره"[24]. لكننا لم نسمع فحيحها، في قتل نساء فلسطين، فلم تحرّك

ISSN : 2602-7402
EISSN: 2676-1637

ساكنا تجاه قضية المرأة العربية، وهي التي تقود الجمعية العالمية المدافعة عن حقوق الأمومة والطفل، ولم نجد نصوصا صريحة في كتاباتها، ما عدا دعوتها للاقتداء بالأمريكيات المثليات، ففي نظرها يمثلن درجة من التحرّر والتقدّم.

و بعد كل هذه التصوّرات الخاطئة عن الإنسان، والتمرّد على القيم والمبادئ، وتشكيك في كلّ شيء، تعتبر إنتاجاتها الأدبية إبداعا مبهرا، يستحق الثناء والتشجيع، ونلفت انتباه القارئ في أدبياتها، أنها تمثل نفسها مقام المفكر المجتهد. ولنا أن نتصوّر حجم الخطورة من أقوالها وكتاباتها، باستخدام خطابها السّاخر ، بأنّها وصلت الى ذروة الوعي العربي المعاصر، وسنحاول التحدث عنه كما يلي:

4–تداعيات خطاباتها السّاخرة على الوعي الاسلامي:

لا شيء حسب تفكير نوال السعداوي الناقد؛ يبرّر تلك القيود الدينية المفروضة عليهن_ النساء_، إلاّ بإحداث ثورة أخرى في المجتمع الاسلامي الذي يتوق الى نهضة فكرية وأدبية وثقافية جديدة(بلمستها السحرية)، تكون مستمدة من تحرير النساء المسيحيات في الغرب، حيث يتم فيها تبرئة المرأة من كل خطيئة، لكن المطلب الغريب من أجل رفع تلك الضغوطات، يكمن في إعادة تفسير الإسلام أو القرآن، بالاجتهاد في حدود الإمكان، فهي تقول:"البدء بالتنقيب في كتاب الله عن الآيات والأحاديث النبوية، التي تساوي بين النساء والرجال، مثل الآية القرآنية :(تستدل بها وتحسب نفسها مجتهدة)﴿**خَلَقَكُم مِن نَفْسٍ وَاحِدَة وَخَلَق مِنْهَا زَوْجَهَا**﴾،(لم تذكر السورة) إنّها؛ تعني أنّ الأنثى مساوية للذكر، لأنّهما من نفس واحدة. وتعني أنّ النساء و الرجال بعضهم أولياء بعض؛ أي إنّ الولاية من شأن النساء والرجال وليس من شأن الرجال فقط"[25]. فهذه بداية الاجتهاد، وضرورة لتعديل النصوص الدينية التي تعادي المرأة وتقهرها. بل واستدلت بالآيات القرآنية، كونها تملك أحقية العبث بالنصوص الدينية، لإعادة صياغتها، بما يعيد لها حقوقها الضائعة.

وها هي، تعبّر ساخرة من الحكمة الإلهية بجعل القوامة بيد الرجل، لذلك تحاول تصحيح ما حكم به الله تعالى من تشريع لخلقه، تعتبرها ضغوطا دينية، بحيث تفسّر مصدر المساواة في الخلق، مآلها حق المرأة في الولاية ما دامت من نفس واحدة مع الرجل. وليحكم القارئ على أقوالها في قدحها للتشريع ككل؛ على أنّه ظلم وحرمان وبطش وإهانة وإذلال، ثم يُقال أنّ هذه المرأة المجتهدة؛ نشأت في بيت أزهري، وكانت تنتمي لتيار الإخوان، وتعلّمت في أسرة دينية محافظة، وتخرجت طبيبة في بلد مسلم. فماذا تركت لدينها من مزايا التشريع؟ فهل الخالق ظلمها بعدم أعطائها حق الولاية؟ وما هي تداعيات هذه المطالب التي تريد نزع حق الولاية من الرجل؟ وكيف ستلاقي خالقها وهي ناقمة وساخطة؟

وفي الأخير؛ تصرح دون خجل، تقول:" إنّني إذا أخطأت، وكان خطئي ناتجًا عن اجتهاد أحد رجال الدين، فإنّ هذا الرجل لن يَتحمَّل المسئولية عني أمام الله؛ فالإنسان المسلم مسئول مسئولية شخصية عن فهمه لدينه. أو لمبادئ الإسلام هي أنّ الناس سواسية كأسنان المشط، لا فرق بين ذكر و أنثى"[26].

لعلّ كلّ قارئ لخطاباتها في كلّ مجالات الحياة؛ يتبادر الى ذهنه أنّ هذه الناقدة، كانت على خطأ كبير وعظيم(لم تسع لتصحيحه أو الاعتذار أو التوبة، حتى امتنعت على ذكر الشهادة قبل الموت). وإن كانت تعبر نفسها قدوة(المرأة الحديدية) للأخريات من النسوة؛ فقد تضلّهم عن الطريق، وتحدث فيهن انحراف عقدي وأخلاقي واجتماعي ونفسي خطير جدا، ومع هذا الحال، تقول هذا ما حاولت أن أفعله للمطالبة بتعديل كلّ النصوص الدينية(تشريع إلهي) ببساطة، وهذا هو العبث بعينه، وأمرها إلى خالقها.

وفي تصوّر الشيخ محمد الغزالي(1917_1996م)؛ يؤكد دائما بأنّ قضية المرأة لم تعالج على ضوء النصوص بقدر ما عولجت على ضوء ملابسات نفسية أخرى(مثل تصوّرات نوال السعداوي). وكما يقول:" بينما ناس مصابون بسوء الظن وشدة الغيرة،

ISSN : 2602-7402
EISSN: 2676-1637

وتصديق الأوهام... فإذا انضم الى هؤلاء أتباع الشائعات العلمية، والآثار التافهة التي تعمل على تشويش قضية المرأة، وتضفي عليها حيرة وغموضا؛ زاد التعقيد الذي يكشف قضية المرأة"[27]. ومع ذلك يضيف تفصيلا رائعا، **حين يقول**:"الاسلام يقيم في سباق الفضائل وزنا لصفات الذكورة والأنوثة، فالكل سواء العقائد والعبادات والأخلاق،الكل سواء في مجال العلم والعمل والجد والاجتهاد،لا خشونة الرجل تهب له فضلا من تقوى، ولا نعومة المرأة تنقصها حظا من إحسان[28]. ومن منطلق فقهه العميق للقرآن الكريم، وتأمله في الآية الكريمة: (مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يَجْزِبِهِ بِهِ وَلاَ يَجِدُ لَه مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا،وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَو أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّة وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيرًا) (النساء: 123-124).

والغريب أنّ الراحلة نوال السعداوي؛ وظّفت بصريح العبارة هذه الآية لتوجّه لها النقد دون تدبّر الذي يستلزم التمحيص الفعلي لأحكام الشريعة الاسلامية التي هي القاعدة الأصيلة لضمان عمل المرأة وإنصافها في هذه الحياة، ولها نصيب عظيم في الآخرة. وردا عن مجاراة الأحكام والقيم التي حاربتها أفكار نوال السعداوي بنوع من السّخرية والغطرسة، كأن تستهل الأمر،ليس كل شيء أسود قاتم في تصورات الإنسان المسلم حول وضعية المرأة كجوهر للقضايا الأخرى، و كما يقول الشيخ الإمام الغزالي مرة أخرى: "النساء الصالحات كثر في تاريخنا،ما بخلن بمال، ولا وقت في سبيل الله، وقد أدّين في صمت ما يعجز عنه الكثيرون، ويستطيع الباحثون في بطون التاريخ أن يجدوا أسماء متوارية محرومة من الشهرة، لها عند الله مكانة رفيعة، لا ينالها غيرهم"[29]. فلا يمكن طرحها بمعزل عن مشكلة الرجل. الأمر الذي يتنافى والنظر الى قضية المرأة كقضية مستقلة. فهما يرفضان الفكر العربي التجزيئي الذي يجعل المرأة تواجه الرجل دائما...وأنّ سبب قهر المرأة، هو أنّها تعيش في محيط ذكوري ظالم، مستند الى قيم دينية وأخلاقية بعيدة عن احترام مكانتها.

صفوة القول؛ قد نمتنع أحيانا من استهلاك خطاب السخرية، في قضايا محسومة على أنها لا تخضع للمساءلة أو النقد، وإنّما نسلّم بثبات صيرورتها في الحياة وبعد الممات؛ فلا يمكن الزّج بتفكيرنا فيها أو التشكيك فيها. وإنّما يمكننا النظر في العبرة منها؛ من حيث الأثر الذي ننال منه منزلة رفيعة عن طريق التمسك بالقيم التي توصلنا الى تحقيق الغاية من الوجود. ووفق الحقائق الثابتة؛ التي جعلت الوحي الأعلى يفصل عند تقسيم الجزاء، فيذكر الجنسين معا؛ لقوله تعالى:"فاسْتَجَابَ لَهُم رَبّهُم أَنّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَر أَوْ أُنْثَى"(آل عمران: 195). وقوله:"يَومَ تَرَى المُؤْمِنِينَ وَالمُؤْمِنَات يَسْعَى نُورُهمْ بَينَ أَيدِيهِم وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُم اليَوم جَنَات تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَار خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الفَوزُ العَظِيم"(الحديد: 12).

5_ الخاتمة :

خلاصة القول؛ حول موضوع خطاب السخرية المنتهج في كتابات الناقدة الراحلة نوال السعداوي، والتي اعتقدها البعض أنّها أعمال إبداعية حداثية، لكن ما يُعاب فيها، هو استخدامها لخطاب ساخر؛ يتعلّق بنقد القيم، في علاقة متشابكة مع قضايا المرأة. والأسوأ من ذلك تنقل أفكارا مضللة الى الوعي الإنساني، فلا ينتفع به أحد بقدر ما يحطم كيانه من الداخل. وكتوصيات نريد الخروج بها من هذه الدراسة،نجملها فيما يلي:

5-1-السّخرية كأسلوب لغوي دعابي له دور وتأثير في توجيه الخطاب نحو الهدف بأيسر الطرق .

5-2_ التمعّن في قراءة الكتابات المنافية للتفكير الحرّ، والتحذير منها كواجب .

5-3-السّخرية لها بعد فني ثقافي بامتياز، لكن بتوظيفها في مكانها الأليق، للتعبير عن مدى تحضّر صاحبه،و لخدمة قيمه الثقافية والحضارية لا بتهديمها وزوالها.

قائمة المراجع :

_القرآن الكريم.

ISSN : 2602-7402
EISSN: 2676-1637

1_أمينة الدهري،(2011م)،الحجاج وبناء الخطاب في ضوء البلاغة الجديدة، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، ط1، ص31.

2_C,Perelman, et L,O,Tyteca, Traité de l argumentation, p279 280

3_ أمينة الدهري، المرجع نفسه، ص33

4_ المرجع نفسه، ص26

5_ المرجع نفسه، ص27

6_ المرجع نفسه، ص169

7_ فيليب بروتون،2011م، جيل جوتييه، تعريب: محمد صالح الغامدي تاريخ نظريات الحجاج، مركز النشر العلمي بجامعة الملك عبد العزيز، السعودية، الطبعة الأولى، ص15 .

8_عبد الله صولة،2011،اللغة والحجاج، مركز النشر العلمي، جامعة الملك عبد العزيز، ط1،ص17.

9_حبيب اعراب، 2001م، الحجاج والاستدلال الحجاجي،سلسلة عالم الفكر، ع1، الكويت،ص129.

10_ فيليب بروتون ، المرجع نفسه، ص16.

11_عبد الله صولة، المرجع نفسه ،ص ص18-19.

12_نوال السعداوي،2017م، الوجه العاري للمرأة العربية، مؤسسة هنداوي،المملكة المتحدة، ص19..

13_ المصدر نفسه، ص20.

14_ نوال السعداوي،2017م، امرأة عند نقطة الصفر، مؤسسة هنداوي،المملكة المتحدة، ص12،

15_المصدر نفسه، ص 12.

16_.نوال السعداوي، الوجه العاري للمرأة العربية، ص23.

17_المصدر نفسه،ص24.

18_ المصدر نفسه،ص24.

19_نوال السعداوي،2000م، عن المرأة والدين والأخلاق، دار الفكر، ط1،دمشق_بيروت، ص122.

20_ المصدر نفسه، ص121.

21_ المصدر نفسه، ص142، بتصرّف.

22_ المصدر نفسه، ص182.

23_ نوال السعداوي،2017م، كسر الحدود، مؤسسة هنداوي،المملكة المتحدة، ص 54.

24_المصدر نفسه، ص55.

25_ نوال السعداوي، عن المرأة والدين و الأخلاق، ص48.

26_نوال السعداوي، الوجه العاري للمرأة العربية،ص 210.

27_محمد الغزالي.1988م."الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها 15،ط1،مكتبة وهبة،القاهرة. ص74.

28_المرجع نفسه، ص 29.

29_ محمد الغزالي.1986م. "قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة، دار الشروق،القاهرة , ص10.